

ميشال سير والانتقال من الإبستمولوجيا إلى أنثروبولوجيا العلوم

Michel Serre and the transition from epistemology to the anthropology of science

تبان مصطفى*

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2 / الجزائر (moustaphataban@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/10/20 ؛ تاريخ القبول : 2022/02/25 ؛ تاريخ النشر : 2022/05/20

Abstract

الملخص

Michel Serres sought to develop epistemology into an anthropology of science, in order to search for the buried roots of scientific knowledge, and for this he took a means of linking all knowledge, whether scientific or non-scientific, from slang, excerpts and myths, without canceling any kind of them, given that Knowledge is not limited to the so-called natural sciences, but extends to other fields such as myths and stories.

He also called, through this project, for the need to control control (man's control of nature), and this will not be achieved, in his view, except by combining nature and culture and between nature and industry.

Keyword: Epistemology ; Anthropology of science ; Nature ; Culture ; Control control.

سعى ميشال سير نحو تطوير الإبستمولوجيا إلى أنثروبولوجيا للعلوم، وذلك لأجل البحث عن الجذور الدفينة للمعرفة العلمية، وقد اتخذ في سبيل ذلك وسيلة الربط بين كل المعارف سواء أكانت علمية أو غير علمية، من عامية ومقصاة وأساطير، بدون إلغاء لأي نوع منها، على اعتبار أن المعرفة ليست حكراً على العلوم المسماة بالطبيعية بل تتعداها إلى مجالات أخرى كالأساطير والقصص.

كما دعا من خلال هذا المشروع إلى ضرورة التحكم في التحكم (تحكم الإنسان في الطبيعة)، وهذا لن يتم في نظره إلا بالجمع ما بين الطبيعة والثقافة وما بين الطبيعة والصناعة.

الكلمات المفتاحية: الإبستمولوجيا، أنثروبولوجيا العلوم، الطبيعة، الثقافة، التحكم في التحكم.

1. مقدمة:

بفضل قوة الرواية والأساطير تمكّن ميشال سير من تطوير الإستمولوجيا نحو أنتروبولوجيا للعلوم (Bensaude-Vincent, 2016)، حيث أنّ هذا التحوّل أحدث ثورة كبيرة على تقاليد فلسفة العلوم، حتّى لُقّب بالوريث الشرعي للمفكرين الفرنسيين، وذلك بدوره الكبير في تحرير فلسفة العلوم من القيود الباشلاريّة، أين كان سابقاً الجدل كلّ منصباً حول سر تطوّر العلوم هل بالقطيعة أم بالاتّصال، وقد تباينت المواقف بين من يدعو بالقطيعة ومن يدعو بالاتّصال. وعلى ضوء ذلك نتساءل: كيف ساهم ميشال سير في تطوير الإستمولوجيا نحو أنتروبولوجيا للعلوم؟ أو بشكل آخر: كيف تمكّن عملياً من تطبيق مشروع أنتروبولوجيا العلوم هذا؟

إنّ أسلوب المجادلة لباشلار وسعة عمله في إقصاء المعارف الأخرى غير العلميّة، تكشف مدى العنف المتأصّل في فلسفة التّقي وقوة المعارف الأخرى التي تمّ القضاء عليها بأيّ ثمن (Bensaude-Vincent, 2016, p. 09)، لكن ميشال سير حرّر الفكر الإنساني من تلك القيود ودعا إلى ضرورة الرّبط بين كلّ المعارف سواء أكانت علميّة أو غير علميّة، من عاميّة ومقصاة وأساطير، بدون إلغاء لأيّ نوعٍ منها، بالإضافة إلى ذلك نجده يقرّ بقيمة المعرفة العقلانيّة لكن ليس بمقدور الإستمولوجيا الكشف عن ذلك، بل المهمّة موكولة إلى الأنثروبولوجيا على اعتبار أنّها الوحيدة القادرة على ذلك، من خلال جمعها ما بين جانبيين اثنين طبيعة وثقافة، لأنّ المعرفة ليست حكراً على العلوم المسمّاة بالطبيعيّة بل تتعدّها إلى مجالات أخرى كالأساطير والقصص، على عكس ما هو عليه الحال مع الكثير من الإستمولوجيّات، كون أنّ المعرفة العلميّة حدّدت علاقة الإنسان مع العالم الخارجي من خلال فصلها بين الذات والموضوع، وتوسّع هذا الفصل أكثر فأكثر مع تقسيم العلوم إلى علوم طبيعيّة وإنسانيّة، كما أنّه اتّخذ من الأنثروبولوجيا كطريقة للبحث عن الجذور الدّفينّة للمعرفة العلميّة.

تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة البشر في كلِّ زمان ومكان، منذ ملايين السنين لحدِّ الآن، فهي قصَّة كبيرة حول الإنسان: لغته وعاداته وتقاليده ودينه، كما أنَّها تجمع بين العلوم الطبيعيَّة والإنسانيَّة، وتأخذ من كلِّ التخصّصات والفروع لتتزوّد منها بغية الوصول لفهم متكامل للبشر، في الحاضر والماضي بتركيزها على أوجه التشابه والاختلاف بينها.

وهي على أنواع: أنثروبولوجيا لغويَّة، أنثروبولوجيا ثقافيَّة، أنثروبولوجيا اجتماعيَّة ودينيَّة... إلخ، والغاية منها هو توسيع رؤيتنا ومداركنا للإنسان، كما أنَّ الشَّيء المميّز لهذا العلم أنَّه لا يتناول الظَّاهرة العلميَّة كشيءٍ مستقلٍّ عن الجوانب الأخرى للإنسان: الثقافيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة، بل ظاهرة لها علاقة وثيقة جدًّا بهذه الأبعاد، ولا يتم هذا إلَّا بتلاقي كلِّ مجالات المعرفة سواءً إنسانيَّة أو طبيعيَّة، على اعتبار أنَّ أنثروبولوجيا العلوم تتطلّب التَّاريخ الثقافي والاجتماعي للعلوم.

كما أنَّها تعتمد على عدَّة مناهج من بينها: المنهج التَّاريخي والمنهج المقارن، أمَّا عن علاقتها بالعلوم فيقول ميشال سير: "نحن نعرف ما هو تاريخ العلوم، نعرف أصول حساب الاحتمالات لكن نجهل كليَّةً ماذا يمكن أن تكون أنثروبولوجيا العلوم؟" (Simard, 1987). فهي كعلم بصفة عامة لا يحظى بمكانة مميّزة، كما أنَّه غريب لدى الكثير من النَّاس، كونه حديث العهد إذا ما قورن بعلوم أخرى كالفيزياء والكيمياء والفلسفة، بالرَّغم من الأهميَّة التي يتمتّع بها بدراسته لماضي الإنسان في أبعاده المختلفة: الاجتماعيَّة والثقافيَّة... إلخ وبدراسته للمجتمعات المعاصرة.

أمَّا عن بدايات أنثروبولوجيا العلوم عند ميشال سير، فهو "مصطلح أُدخل في كتاب تماثيل (Statues)، له ما يبرِّره في نواحي كثيرة: المعرفة العلميَّة ترسم علاقة الإنسان بالعالم، أي تستلزم الفصل بين الذات والموضوع. العلوم المعاصرة تُقلِّص الأشياء أو القضايا إلى مواضيع تقع تحت نظر العالم". (Bensaude-Vincent, 2016, p. 08) و"هذا الفصل بين الذات والموضوع تضاعف فيما بعد، من خلال تقسيم العلوم إلى قسمين: علوم طبيعيَّة تدرس العالم مستبعدة الإنسان، وعلوم إنسانيَّة تجعل من الإنسان موضوع دراسة.

وبذلك فالعلم نفسه أصبح موضوع دراسة أنثروبولوجيَّة، حيث أنَّه منذ عقدين من الزَّمن تطوَّرت أنثروبولوجيا العلوم جدًّا، إلى درجة أن الآراء الصَّارفة للانتباه لسير أصبحت تقريبًا عاديَّة " (Bensaude-Vincent, 2016, pp. 08-10).

يضع ميشال سير توضيحاً حول أنثروبولوجيا العلوم فيقول: "هي شيءٌ عدا حساب الاحتمالات، هي تاريخ آخر لمثل هذا الحساب. لكن لم يكن لأحدكم أبداً الفضول لأن يوجّه نظره لجانب الأنثروبولوجيا الدينيّة للتّضحية؟ هنا أظن الجذور الأصلية لمثل هذا النوع من المعارف " (Simard, 1987, p. 155). أي لحساب الاحتمال وذلك بعرضه لقصص دينيّة قديمة، من بينها قصّة السيّدّة التي أحضرها جماعة متعصّبة إلى سيدنا عيسى عليه السّلام، بغية رجمها بحجّة أنّها أمسكت في زنا، فردّ عليهم بكذا: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أوّلاً بحجر (الصفحات 07-08) يرى ميشال سير أنّه من يقرأ هذا النّص يقول أنّه نصّ أخلاقي، لكنّه ليس كذلك على الإطلاق، حيث أنّه إذا ما أعدنا القراءة بتأنيّ لنلاحظ أنّ ما تشير إليه 'الحجرة الأولى' يخالف ما نفكر فيه، بمعنى أنّه يحوي قراءة أخرى ليس بإمكان الجميع استخراجها وهنا تكمن أهميّة الأنثروبولوجيا، يقول: "إذا ما رميت الحجرة الأولى ستكون أنت المسؤول على الموت الأوّل، وبذلك فسنوات بعد ذلك الكل سيلتقُ ضدّك ثم إنك ستأخذ مكان الضّحية ليرجموك، وكذلك الذي رمى عليك أوّل حجر سيأخذ مكانك فيما بعد وهكذا دواليك، فهذا منطق الرّجل الثّالث " (Simard, 1987, p. 155).

نستنتج ممّا تقدّم أنّ بهذه التّضحيات سينتقل المجتمع شيئاً فشيئاً نحو دماره، وبذلك فالمقولة تنصّ على عدم رمي أحدهم حجر، كما أنّه إذا كان النّص بالنّسبة إلينا أخلاقياً دينياً فهو ليس ظاهرة دينيّة معزولة بعيدة عن العقل، بل له جذور أنثروبولوجيّة جدّ بعيدة لمعارفنا العلميّة، كونه يظهر تركيبة أنثروبولوجيّة خفيّة من بينها التّاريخ لحساب الاحتمال بطريقة أخرى، يقول ميشال سير: "يطرح لوكريس مسائل تتعلّق بتاريخ العلوم وتاريخ الأديان، وإنّ العلاقة التي تربط بينهما هي التي قرّبتنا من فرضيّة رينيه جيرار، فهي (أي الفرضيّة) تُتيح فهم بعض النّقاط الأركيولوجيّة المتعلّقة بتاريخ العلوم. تتّضح أركيولوجيا حساب الاحتمال بشكل باهر على ضوء نظريّته، أي نظريّة التّضحية" (ميلاد، 2004). كذلك أثبتت الدّراسات أن هنالك بعض البحوث العلميّة أو النّظريّات تمّ إقصاؤها بالرّغم من قيمتها ووزنها، لكن هذا الإقصاء راجعٌ في الحقيقة إلى بعض العوامل المحيطة، من بينها العوامل الاجتماعيّة، فالحاجة الاجتماعيّة ومتطلّباتها هي التي اضطرت الإنسان للإبداع، وتتقدّم هذه

الحاجة دائماً في شكل (مشكلة اجتماعية) تتطلب حلاً مناسباً، فلن يكون أي اختراع إلا إذا سمح الفكر الاجتماعي به، إذ على سبيل المثال لم يكن بإمكان العالم الفلكي غاليليو غاليلي فرض فكرة دوران الأرض بالرغم من أنها صحيحة، وذلك نظراً لمخالفتها لمبادئ الكنيسة وبالتالي للواقع الاجتماعي السائد آنذاك الذي كانت تحت رحمته.

يتضح لنا من ذلك أن المسائل العلمية يجب أن تنتهي معها أسباب الاختراع والإبداع، خاصة منها الاجتماعية التي تعمل على تحريضه، وقد تؤدي هذه الأسباب إلى تحقيق الإبداع في بلد دون الآخر وفي زمان دون غير، وعليه يجب الإقرار بأن لكل إبداع محيط اجتماعي ينبت فيه، وهذه من بين المسائل التي تسعى أنثروبولوجيا العلوم نحو كشفها.

1/- العلاقة بين الدين والعقل في مشروع أنثروبولوجيا العلوم عند ميشال سير:

يرى ميشال سير أن للأديان دوراً جوهرياً في دراسة السلوكات الإنسانية، إذ يقول: "أحكي عن الدين وعلى الدين المقدس بصفة خاصة كأدوات أنثروبولوجية رائعة، الديانات تخفي عدداً هائلاً من العقلانية التي تسمح بشرح السلوكات الإنسانية" (Serres, 2014)،

إن الناظر لتاريخ عصر الأنوار ليجد أن هنالك قطع الصلة بين الدين والعقل، من خلال الدعوة إلى التحرر من سجن الاعتقاد والأوهام وحكم الكنيسة، كون أن التسلط الذي كانت تبديه الكنيسة تسلطاً استبدادياً، وهذا ما حاول توظيفه مونتيسكيو عبر حملة رسائله الفارسية، موضحاً من خلالها الحياة الغربية وما تتصف به من تسلط الكنيسة، استبداد الحكم والانحلال الاجتماعي، كذلك التصور الذي أبداه كوندرسيه للدين كونه ظلام، في حين العقل بوصفه سبيل معرفة ووسيلة لتغيير الواقع، والابتعاد عن التأمل الميتافيزيقي الذي لا فائدة مرجوة منه.

لكن العلاقة بين الدين والعقل في نظر ميشال سير يمكن تحليلها من خلال مصطلح واحد وهو جوبيتر (Jupiter)، والذي يتكوّن من شطرين اثنين: Ju و Piter.

ف Ju يشير إلى الإله (dieu) وكذلك إلى نور النهار، كون أن Ju يُقصد به في الفرنسية jour أما Piter فهي مشتقة من الأب، لتفيد بذلك لفظة Jupiter 'نهار-أب' 'jour-père'. وهذا يعطي في المسيحية: 'أبانا الذي في السموات'، أبانا حيث يأتي الضوء من السماء '.

إلا أنه يراه شيئاً يتتافى وفلاسفة الأنوار، كونهم ينفون ذلك ويعتبرونها مسألة نفسية، أي التضرع لجوبيتر (Jupiter) بدافع خوف.

وعليه فعلم الفلك هو الذي يفسر كيف أن النور ساطع من الشمس، وبفضل الكهرباء المغناطيسية نعرف ما هي الصاعقة (Serres, 2014, p. 285) يقول سير: " لن يوجد هنالك الإله بل قوانين الفيزياء الفلكية وعلم الفلك والكروستاتيك، هذا هو القرن 18م وكوندرسيه الذي يتكلم بلساني " (Serres, 2014)

ثم تبدل الحال نوعاً ما بعد ذلك مع وضعية أوغست كونت، الذي حاول من خلالها دمج الدين مع العقل، ونلمس ذلك في دينه الجديد الذي نادى به، والذي هو صورة للنصرانية مع نوع من التحريف، استقاد منه ميشال سير بعد ذلك في تأسيسه لإستمولوجيته.

1-1/- فكرة الصنم الأعظم وحقيقة الديانة الجديدة في فلسفة ميشال سير:

إن المتأمل في كتب ميشال سير يجد أن مسألة الدين تعبرها جميعاً، ولا يوجد كتاب بالأساس كرس بصفة خاصة لأجل ذلك، كون أن كل المسائل التي تطرق إليها إلا وتحوي بعداً دينياً، كما أن من بين الشخصيات التي صاغها ولها علاقة بهذا الجانب الصنم الأعظم (le grand fétiche)، فما المقصود بها؟

يرى ميشال سير أنها شخصية موجودة مسبقاً عند أوغست كونت مؤسس الوضعية، إذ ميز بين ثلاث مراحل في التفكير الإنساني: المرحلة اللاهوتية وتميزت بسيطرة الخطاب الديني، المرحلة الميتافيزيقية وتميزت بسيطرة الخطاب الفلسفي، وآخر مرحلة هي الوضعية والتي علا فيها الخطاب العلمي على كل الخطابات وترجع على عرشها، وإن كان يعارض ميشال سير على هذا الترتيب، كون أنه يمكن للمجتمع الواحد أن يحيا المرحلتين في آن واحد، أي الفهم العلمي والالتزام الديني، بمعنى أن المرحلة الوضعية لم تأت على أنقاض المرحلة الدينية بل صاحبها عبر التاريخ.

" لكن الشيء المميز والأكثر أهمية في فلسفة أوغست كونت في نظره، هو اقتراحه في المرحلة الأخيرة من حياته ومساره العودة إلى الفيتيشية، انطلاقاً من أنه تمّ العثور حتى داخل العقل العلمي

على جزء من الفيتيش المهجور في مسار التاريخ، بالإضافة إلى ذلك تتبؤه بنهاية العصر العلمي والصناعي وظهور ديانة جديدة هي الديانة الوضعية " (Serres, 2014, p. 266)، وهنا تتمركز فكرة الصنم الأعظم.

يقول سير عنها: " هي من بين الحدوس اللامعة التي ظهرت في المشروع الديني الجديد لأوغست كونت. يصوغ ثالث وثقافة وضعي جديد ' Trinité positiveune nouvelle ' مع ثلاث شخصيات: الموجود الأعظم (le grand être) الذي يوجّه الكون، الصنم الأعظم (le grand fétiche) والذي هو الأرض، الوسط الأعظم (le grand milieu) والذي هو الفضاء " (Serres, 2014, p. 268). ويُعتبر الصنم الأعظم أهم شيء أثار اهتمام وإعجاب ميشال سير في هذا الثلاث، حيث إنه نظر إلى الأرض كصنم عظيم، يقول: " اعتبار الأرض كصنم عظيم هو أعظم إبداع؛ خلاص من كل هذيان وطموح نحو تأسيس دين جديد بعقائد جديدة وطقوس علمية مقدسة، كما نتيج لنا هذه الفكرة (الأرض كصنم أعظم) التطرق إلى شيء أساسي " (Serres, 2014, p. 268). ويعلّ ميشال سير هذا التشبيه - من منظوره الخاص - إلى كون الصنم له سلطة دينية مقدسة لدى البشر، والغريب أنهم هم الذين صنعوه ونحتوه، فالذي صنعه أصبح هو الذي يخشاه، فذلك الحال مع الأرض لو نعود إلى الطبيعة لنعرف أننا نحن الذين غيرنا فيها الكثير من الأمور بفعل نشاطنا، وعليه فهذه الأرض التي غيرنا واستثمرنا فيها انعكست علينا بالسلب وأصبحت هي التي تتحكم فينا، ويتجلى هذا التحكم في ظواهر عديدة أهمها: التغير المناخي، الاحتباس الحراري، التلوث والأعاصير... إلخ (Serres, 2014, pp. 268-269).

وعليه أصبحت الأرض الصنم الأعظم نصنعه بأنفسنا ونخضع له، لكن فيما يخص الديانة فلم يحددها ميشال سير إطلاقاً بل قال: " إذا ما طلبت مني بواسطة هذا، في ما أعتقد في العمل الفلسفي وهو إنشاء ديانة طبيعية حول الأرض إن نسميها آلهة الأرض (Gaia) أو لا؟ لأجبتك بدون غموض بالسلب، لم أتكلّم على الدين بل على الأنتروبولوجيا " (Serres, 2014, p. 275) (Serres, 2014, p. 275). فهو لم يحدّد أي نوع من الدين بل دراسته أنتروبولوجية لتاريخ كل الديانات سواء السماوية أو البوذية، والتي بيّنت أنّ الواقع الحالي للعالم يعود إلى بدايته وهو عبادة الأصنام، أي أنّ الدين الحالي هو الدين الوضعي، فإذا كان القدامى يعبدون الأصنام مصنوعة من

خشب أو غيرها من المواد، فهم يحتونها فقط لا يصنعون المادّة، كذلك شأن الإنسان أو العلم مع الأرض فإنّه يغيّر الطّبيعة أو يحولها بأدواتها.

2/- دور الأنتروبولوجيا في إلغاء التّمايز (طبيعة/ثقافة وطبيعة/صناعة):

يدعو ميشال سير إلى ضرورة التّحكّم في التّحكّم، وهذا لن يتم في نظره إلّا من خلال الدّور الذي يقدّمه علم الأنتروبولوجيا، كما قد كان لسير التّأثير الكبير على الكثير من الفلاسفة، من بينهم برونو لاتور وذلك في الكثير من النّقاط أبرزها: تأسيسهما محاكمة حول فكرة الطّبيعة في الفترة المعاصرة، مستنديّن في ذلك على بعض المقالات التّاريخيّة القصيرة: (غاليلي أمام محاكم التّفتيش، مواجهة بين كليكلاس وسقراط في غورجياس)، حيث تعمل هذه المقالات كأمثلة أو نماذج (Bensaude-Vincent, 2016, p. 10).

" إنّ الانقسام بين الطّبيعة والثّقافة والذي تناولته الأنتروبولوجيا وعالجوه بمنهجية تاريخيّة، ما هو في الحقيقة إلّا وجهة المشكل، لأنّ هذه الفكرة (الطّبيعة الموضوعيّة) تخضع لسيطرة أناس لا يجعلون الانقسام واحداً، بل يُدرجون مصطلحا ثالثاً [وهو صناعة] " (Bensaude-Vincent, 2016, p. 11)، وبهذا فهناك انقسامان مختلفان: انشطار بين الطّبيعة والصّناعة وانشطار بين الطّبيعة والثّقافة.

" فالتمييز طبيعة/صناعة كان تاريخياً معقل التّفكير الدّيني، والذي أدان التّكنولوجيا كمحاولة للتّساوي مع الله والتّنافس مع الخالق " (Bensaude-Vincent, 2016)، كما أنّه تحرّكت فيه المناقشات الإتيقيّة حول التّكنولوجيات الجديدة، إذ " يسوق أفلاطون في محاوره 'بروتاغوراس' أسطورة بروميثي (Prométhée) (المستبصر)، التي مفادها أنّ إبيميثي (Epiméthée) (الغبّي) قد كُلف بتوزيع خصائص الحياة والدّفاع عن النّفس على الكائنات الحيّة، فحاول توزيع الوسائل بشكل عادل وفقاً لطبيعة الموجودات من حيث صفة النّقص، لكنّه نسي الإنسان فاضطرّ لسرقه النّار من هيفاسطوس (Héphaïstos) ومن أثينا (Athéna) " (تبيس)، كما أنّ فكرة التّمييز بين الطّبيعة والصّناعة ليست

حديثه العهد، بل قديمة جداً منذ الفلسفة اليونانية، مع أفلاطون وأرسطو، كون أن هذا الأخير ميّز بينهما انطلاقاً من أن الطبيعي هو الذي لا دخل ليد الإنسان فيه أي نتاج الطبيعة في حين الاصطناعي هو ما أنتجته يد الإنسان، لكنّه اعتبرها تكميلاً للطبيعة وليست معارضة لها. أما أفلاطون على العكس من ذلك تماماً رأى أن التّقنيّة هي مجرد محاكاة للطبيعة المحسوسة، وهذه ليست سوى نسخة مزيفة، فيلزم عن ذلك أنها (التّقنيّة) مهما بلغت إتقانها فهي زيف (تيبس)، وذلك كونها محاكاة لعالم الحس والذي ما هو في الحقيقة إلا ظلال أما العالم الحقيقي فهو عالم المثل، ولعلّ أكبر دليل على هذا التّنافر ما بين الطبيعة والتّقنيّة الآثار النّاجمة عن التّطوّر الذي شهدته العلوم والتّقنيّة المستعملة، وكأنّ الإنسان بذلك يتحدّى الطبيعة أو ينافسها، ليس من أجل السّيادة فقط بل لينزع منها صفة الألوهيّة ويحلّ محلّها، فيؤلّه بذلك ذاته ويتحوّل من صانع إلى خالق، ومن تجلّيات هذا الكلام علم البيولوجيا بصفةٍ أخص، فقد أحدث هذا الأخير تطوُّراً عملاقاً فاق كل التّوقّع، كفكرة الاستنساخ والتّلقيح الاصطناعي، كذلك ما حقّقه علم الوراثة خاصة مع فكرة التّهجين والطّموح الذي ينتاب بعض الأطباء المُلحدين في إمكانيّة تمديد الأعمار، أكثر من ذلك القضاء على الموت على اعتبار أنّه مرض كباقي الأمراض التي تُصيب الكائن.

انطلاقاً ممّا سبق " انقاد ميشال سير إلى التحدّث عن مسألة اهتزاز فكرة الله، وهو ما تسعى العلوم الإنسانيّة بالضبط إلى هدمه، خاصة التّحليل النّفسي وعلم الأنتروبولوجيا، كونها تُظهر الرّغبة اللاواعية في قتل الأب، فقد أعلن فرويد ونيّشه عن موت الإله، وبذلك فإنّ بُعدي الدّين قد انهاراً ولم يبق بذلك ' أبانا الذي في السّموات ' بسبب العلوم الدّقيقة، وفكرة ' أبانا حيث يأتي الصّوء من السّماء ' بسبب العلوم الإنسانيّة " (Serres, 2014, p. 286)، يقول في ذلك ميشال سير: " العلوم الدّقيقة قد مسحت فكرة الأب، لكن هنالك على الأقلّ بُعداً يحلّ محلّ هذا الأب " (Serres, 2014). هكذا ما يمكن أن نستخلصه من أسطورة بروميطي أنّ التّقنيّة جاءت لتعويض النّقص وكذلك الأهميّة الكبيرة للنّار في ظهورها، لكنّها مسروقة من الآلهة كما أنّها خطيرة، ممّا يجعل الإنسان يدخل في منافسة وصراع معها أي الطّبيعي ضد الصّناعي، لأنّ الغاية من الصّناعة هو ترويض الطبيعة وجعلها في خدمته لكن انقلب البحر على السّاحر، حيث أنّ التّطوّر المذهل للتّقنيّة جعل الإنسان لا يستطيع التّحكّم فيها وانعكست بذلك بالسّلب عليه، لذلك يدعو ميشال سير إلى إلغاء هذا

التّمايز وإعادة النّظر في تحكّمنا في الطّبيعة، يقول: " نحن نُعيد هذا التّاريخ لفهمه أفضل، نعم يتوجّب إعادة قراءة الدّيني لكن قراءتي هنا أنثروبولوجيّة " .

لقد أخذ ميشال سير من الدّين أنموذجًا لأجل إقامة اتّصال بين المعارف العامّة والدّقيقة، يقول: " ما أردت فعله منذ أن شرعت في عملي هو في الواقع بناء جسر بين اثنين متباينين، ما هو هذا الجسر؟ شيء ديني: لاحظْ بابا روما الذي يقوم بجسر بين السّماء والأرض " (Serres, 2014, p. 287).

فاهتمامه بالوصل بين المعرفة الإنسانيّة والدّقيقة، - كما تقدّمنا - كان من خلال استعارة وضعها وهي ممر شمال غرب (Le passage du Nord-Ouest)، لكنّه ممر في نظره ليس بالسّهولة التي نعتقدّها، يقول: " المهم هنا القول بأنّ الممر نادر ومشدود [...] في الغالب الممر مُغلق إمّا بواسطة الأراضي أو بواسطة الجليد إمّا أنّنا ضيّعناه، أمّا إذا كان الممر مفتوحًا فإنّ طول الطّريق يُعقّد التّنبؤ " (Lagadec, 1997). لكن بالرّغم من هذه الصّعوبات فهو ليس بممر مستحيل، يقول: " ممزّات موجودة أعرفها وضععتها في أعمالٍ معيّنة [...] كان آخرها طفيلي 'parasite'، أين من العلوم الدّقيقة إلى العلوم الإنسانيّة، علوم ثقافيّة وطبيعيّة معًا وطريق واحد. تمّ فتح الطّريق ورسم الخرائط " (Lagadec, 1997, p. 43). وخير دليلٍ على ذلك أسطورة ' La thanatocratie ' السّابق ذكرها، فما هو ملاحظ لدى غالبيّة النّاس أنّهم ينظرون إلى العلم من زاوية أو نطاق واحد، كونه مصدر نور فقط له تجلّيات إيجابيّة على الإنسان، وذلك نتيجة لما قدّمه له من إبداعات وتكنولوجياّات ساعدته في مواجهة الطّبيعة، عن طريق معرفة القوانين المتحكّمة فيها وبالتالي جعلها في خدمته، لكن الجانب الخفي هو تأثيره أو انعكاسه السّلبّي، المتمثّل في التّقتيل والدمار والحروب بفعل الاستخدام السيّء له في الاختراعات النّويّة وأسلحة الدّمار .

وعليه فإنّ التّقنيّة قد انحرفت عن مسارها، كونها أُتخذت في البداية كوسيلة لأنسنة الإنسان لتتحوّل فيما بعد إلى وسيلة لتشيبيّه، وأمام هذا المشكل العويص تُصبح فكرة مدّ الجسور بين العلوم الدّقيقة والإنسانيّة أكثر من ضرورة، يقول ميشال سير: " الجسر الذي نحتاج لجعله ممكنًا ممر بين شاطئين،

واللذان هما حدود هذا الفراغ دون السّماح للسّخرية من إغائه، هنالك فراغ ونحن نحتاج لجسر " (Lagadec, 1997, p. 45).

إنّ اهتمامه بمسألة الرّبط بين كل المعارف يعود للطلاق الحاصل بين العلم والفلسفة، كون أنّ هنالك الكثير من الأعمال الفلسفيّة نمت خارج العلم والعكس صحيح، الكثير من المعارف العلميّة نمت خارج الفلسفة، فأنشأ بذلك طلاقاً والذي - في نظره - ليس من تقاليد وعادات المجتمعات النّاطقة بالّلغة الفرنسيّة، ويستدلّ بذلك بالقرن 18م حيث كان إنسكلوبيديّاً، فقد كان ديديرو ميكانيكياً وأديباً وبعد ذلك في القرن 19م سيكون بالزّاك (Balzac) الصّديق الوفي المقرب لكل علماء زمانه، إلّا أنّ هذا التّزاوج قد زال قُبيل الحرب العالميّة الثّانية، وهو ما أدّى به إلى إدراج فكرة ' Randonnée ' ليمنح لها أهميّة كبيرة، ويقصد بها تلك الحركات التي تقوم بها الطّريدة يميناً وشمالاً محاولةً مراوغة مطارديها للهروب منهم، فنقول courir à Randon وهو الجري بسرعة في أيّ مكان كالطّريدة (Simard, 1987, pp. 147-150)، وهذا للإشارة إلى ضرورة المرور عبر كل حقول المعرفة، وهو بالطبع ما كان عليه الحال مع مشروع أنتروبولوجيا العلوم لميشال سير، حيث أنّه لم يُقص ولا معرفة على حساب أخرى أيّاً كان نوعها، على عكس غاستون باشلار" الذي أظهر تقريبه اللّطيف للعوائق الإبيستمولوجيّة التي سردها في كتابه (تكوين العقل العلمي) مع الأخطاء المُميتة، والبعد الأخلاقي والديني لمقتضيات الخلاصيّة والنّقاء في الخطاب العلمي" (Bensaude-Vincent, 2016, p. 09)، أي أنّ المناداة بالخلاصيّة أو القداسة في العلم هو ذو امتداد ديني وأخلاقي، كون أنّ هذه الفكرة موجودة في الدّين حين يميّز بين المكان المقدّس والدّنس، لكن العلم في نظره هو على العكس من ذلك تماماً يشمل كلّ مجالات المعرفة بدون استثناء، لأنّ الدّراسة التّاريخيّة للعلوم في نظره تتوجّب إضافة تاريخ المعارف المرفوضة أو المقصاة، فمحاضرات ميشال سير فتحت فضاء الحرّيّة وانتقاداته توجّهت صوب الذين يقدّسون العلم بعزله في زاوية الدّقة.

وعليه " فالتّاريخ هنا [أي الأنثروبولوجيا] أستخدم كوسيلة للزّعزعة في عمليّة التّأريخ للزوجين طبيعة/ثقافة " (Bensaude-Vincent, 2016, p. 08)، وهي الخاصيّة التي تميّز العقل العلمي الجديد - الجديد عند ميشال سير.

يرى ميشال سير أنه كان هناك تأثير سلبي للطلاق الحادث بين العلم والأدب في الجامعة، فقد كان لنيته علاقة كبيرة بنظرية الديناميكا الحرارية، من خلال كتابه نظرية العود الأبدى، إلا أن ذلك الطلاق جعله بعيداً عن العلم، إذ أن لنظريته بعداً فيزيائياً، ويتبدى ذلك في إجابته على سؤال جوهرى: هل الزمان يسير إلى ما لانهاية أم أنه سيعيد نفسه؟

إن فكرة العود الأبدى تشير إلى سيرورة الزمن بشكل دائري وليس مستقيماً، كما تُفيد بأن الإنسان والكون وكل الأشياء ستُبعث من جديد بعد موتها، وهذه الدورات ستكرر مرة أخرى بنفس الكيفية بدون زيادة أو نقصان، كذلك فإن أي شخص مهتم في الفلسفة يعرف الخندق الذي يُفَرِّق في أيامنا بين الفلسفة التي تُدرّس في مدارسنا، والمعرفة التي تُبنى في جانب آخر تحت اسم العلم، حيث لا توجد رابطة في الواقع بين جيل دولوز والبيولوجيا الجزيئية، أو بين نيته والفيزياء الفلكية (Lagadec, 1997, p. 41)، إذ يوجد عالمان أو ثقافتان متنافرتان تجهلان بعضهما البعض، وهذا ما سعى ميشال سير إلى تداركه في سلسلة هرمس تحت اسم الاتصال (La Communication)، كونه يحلم بذلك الزمن السعيد الذي تلتحم فيه المعرفة الإنسانية والعلمية، كما " إن هناك إلى حد معين هذه الرغبة المشتركة بين عدد كبير من فلاسفة في زماننا، واعين بالتشتت المتزايد، لكن على ما يبدو هذا التمايز الجذري بين الحقائق والقيم لا يقاوم " (Lagadec, 1997, p. 41)، كون أن العلوم تهتم بالحقائق فقط وهذا ما نجده في الفترة الحديثة، تاركة مسألة القيم من شأن الفلاسفة ورجال الدين، لكن ولا أحد تجرأ إلى المضي قدماً في هذه المسألة عدا ميشال سير، من خلال إقامته لجسر يربط بين المعارف المتضادة وبذلك الربط بين الحقائق والقيم، ويظهر هذا جلياً في Thanatocrate، من خلال الإشارة إلى الاستغلال السلبي للعلم أو الجانب السلبي له، كونه سلاحاً ذو حدين، وهذا ما حصل مع القنبلتين النوويتين هيروشيما وناغازاكي، والذي يُرجعه إلى سبب إخضاعه لمؤسسات السلطة.

كذلك " إذا ما عدنا مثلاً إلى أعمال مركز رويومونت (Royaumont) حول وحدة الإنسان 'sur l'unité de l'homme' (1972)، وبالأخص المشروع المتبع مع إدغار موران (Edgar Morin)

حول الافتتاح بيوأنثروبولوجي، لا نستطيع إلا تصوّر أنّ الانشقاق الموجود بين البيولوجيا والأنثروبولوجيا ليس له ما يبرّره ليكون، فالسلسلة اليوم تقريباً أعيد تشكيلها تنطلق من البيولوجيا إلى السوسيولوجيا مروراً بالأنثروبولوجيا " (Annie Rochette, 1979)، أيضاً " فإنّ الأنثروبولوجيا أصبحت هذا المكان الحاسم أين تستولي على العلاقات بين الطّبيعة والثّقافة، الإنسان والحيوان [...] فالإنسان قد وجد وحدته كما أنّ العلوم الإنسانيّة تفتّح على علوم الحياة، وكذلك علوم الحياة تفتّح على علوم الإنسان، وبذلك فالانقسامات القديمة بين الذات والموضوع، الإنسان والطّبيعة، الطّبيعة والثّقافة ليس لها مبرّر لوجودها " (Annie Rochette, 1979, p. 252) .

خاتمة:

خلاصة القول إنّ ميشال سير دعا إلى ضرورة إعادة النّظر في الأساطير كونها مصدراً ثريّاً بالمعرفة، وفضلها لديه في إقامة إبستمولوجيا حقيقيّة تخالف الإبستمولوجيات السّابقة، متجسّدة في شكل أنثروبولوجيا العلوم، انطلاقاً من فكرة أنّ الأدب والزّوايات والأساطير بصفة خاصّة، ستكون خزّاناً للعلم باحثاً من داخلها عن تاريخه، كما أنّ الغاية من هذا المشروع الأنثروبولوجي للعلوم هو إلغاء التّمايز بين الطّبيعة والثّقافة وبين الذات والموضوع، بالإضافة إلى تمثين عرى التّواصل بين الدّين والعقل.

قائمة المراجع

Annie Rochette, i.-d. (1979). Michel Serres. Dans *revue des sciences religieuses* (p. 251). faculté de théologie catholique, palais universitaire Strasbourg.

Bensaude-Vincent, B. (2016, 07 10). *Michel Serres, historien des sciences*. Récupéré sur : <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00350777>

Lagadec, C. (1997, automne). Michel Serres et le vrai nom de dieu. 08 (01), p. 42.

Serres, M. (2014). *pantopie: de hermès à petite poucette*. Paris: édition le pommier.

Simard, J.-C. (1987, printemps). L'anthropologie des sciences: un programme pour la philosophie ? (S. d. Québec, Éd.) 14 (01), p. 155.

إنجيل يوحنا. (بلا تاريخ). 08-07.

محمد ميلاد. (مسارات فلسفية, 2004). ، حوار مع مجموعة من الفلاسفة . الصفحات 142-143. يوسف ، تيبس. (بلا تاريخ). الثقافة العلمية والقيم الإنسانية: مفارقات النسق العلمي-التقني. مجلة رؤى تربوية (25)، صفحة 53.